نظريات المحاجة: اكتشاف جديد خصب

لـ: إيف جانري (*)

ترجمة محمد يحياتن، جامعة تيزي وزو

تعد الأبحاث الراهنة حول المحاجة امتدادا للموروث البلاغي الجم وتحويلا لوجهته في ذات الوقت. إنه حقل دراسي في أوج التجدد.

أن المحاجة argumentation موجودة في كل مكان: في الخطاب السياسي ومرافعة المحامي واللافتة الاشهارية والمفاوضات التجارية والحوار الجاري في المقهى ومناقشة الرسالة الجامعية...

إن الخطيب يلفي نفسه في وضع رجل الاشهار حين يهم بديباجة رسالة إشهارية. فكلاهما مجبر على اغراء الغير بله التأثير عليه. انهما مطالبان باصطناع جميع

(*) ترجمة لـ: Yves Jeanneret: Les théories de l'argumentation, une redécouverte féconde, Revue Sciences Humaines, n38, avril 1994.

الوسائل التي هي من مشمولات «فن الاقناع» الذي ميّز باسكال، بصدده، بين وجهين: الاقناع بالتوجه إلى العقل، واستثارة الرضا بإثارة المشاعر.

أسباب الاحتجاب والعودة

لقد ظلّت تقنية المحاجّة الموسومة بالبلاغة تعتبر، ردحا طويلا من الزمن، «فنا من أمهات الفنون»، وقد ساهمت البلاغة التي وضعها الاغريق (مع السوفسطائيين، سقراط، أرسطو) - والتي احتضنها الرومان (مثل شيشرون) في التأثير على العصر الوسيط أيما تأثير. كما قيّض لها أن تتبوأ منزلة مرموقة في تدريس ما كان يعرف بالانسانيات الكلاسيكية منذ عهد النهضة الذي وصفه مارك فوماروليFumaroli بـ «عصر البلاغة»(1) éloquence غير أنه بعد ذلك، أخذت البلاغة تنأى شيئا فشيئا عن التفكير والتعليم. ولا ريب في أن هناك أسبابا عديدة ساهمت في احتجابها. فعلى مرّ القرون، أخذ موضوعها في الانحسار تدريجيا.

وبالنسبة للاغريق، لم تكن البلاغة فنا للزخرفة: فلما كانت البلاغة وليدة الديمقراطية، فإنها كانت تتعلق بحذق الكلام وفن التفكير والجدل. بيد أنه من عصر النهضة إلى غاية العصر الصناعي، سرعان ما تلاشى فضاء البلاغة، بحيث انتصرت للشكل والصور الأسلوبية. وهكذا عرّضت نفسها للنقد والتجريح الذي رماها بالتصنع والسذاجة. ومن جهة أخرى، وحتى وإن رام الاغريق التمييز الظاهر بين المحاجّة النبيلة والكلام المغري، فإن هذا التمييز قد ظل، مع ذلك، على جانب كبير من الغموض. ففن المحاجة قد يظل إلى حد بعيد مرادفا للمناورة ma-nipulation .

أخيرا هناك سبب خارجي يفسر أفول البلاغة: فانطلاقا من عصور الأنوار، أخذت العقلانية تناصبها العداء وتلاحقها وتطاردها دون هوادة. فديكارت كان قد وضع مشروعا ينشد من خلاله دحض كل الاستدلالات التي لا تنبني على البداهة: ومعنى ذلك أن العقل يجب أن يطغى على فن الخطابة. أما في القرن التاسع عشر، فقد أصدرت النزعة العلمية scientisme حكمها النهائي على البلاغة: ان العلم إنما يقوم على البرهنة، وليس له أن «يثرثر» ، كما وصفت القضايا غير القابلة للبت بالميتافزيقية.

الجدال ضدّ الخبير

تشهد البلاغة، منذ عقود من الزمن، نوعا من تجديد النظر الذي لا يخلو من فائدة، هي في الواقع، صدى للوقائع الاجتماعية الجديدة. في المقام الأول، أخذت حدود النزعة العلمية تبرز للعيان. فالعلم لم يعد ينطوي على ضمانة مطلقة، كما أن التقنية يمكن أن تسخّر للصالح من الأمور كما يمكن أن تسخر للطالح منها. فضلا عن أن «معرفة» الخبير لا يمكن أن تفرض نفسها فرضا بشكل تلقائي. وهكذا حصل نوع من الاجماع مؤداه أن الجدال المفتوح يجب أن يطغى على خطاب «السلطة»، حتى وإن كانت هذه السلطة علمية.

وموازاة مع ما قدّمناه، أخذ دور الاتصال communication في التعاظم في صلب عالم الاقتصاد. فالمؤسسات ليست بحاجة إلى الاشهار والتسويق والاتصال الخارجي لبيع منتوجاتها فحسب، بل هي مجبرة كذلك على اعتماد الاقناع في علاقات العمل الجديدة. فالتفاوض وارادة تعبئة الطاقات حلت محل مراقبة السلوكات.

أخيرا، ألا تبرر الديمقراطية تفوقها على الأنظمة الأخرى باعتمادها حرية التعبير؟ وهذا لمن شأنه أن يحمل الناس على تجديد النظر في ظروف وأسباب الجدال الحقيقي.

كما أن العلوم الانسانية قد اكتشفت من جديد المحاجّة، وذلك بواسطة سبيلين مترافديين. السبيل الأول يتعلق بالنزعة التي قوامها عدم النظر إلى السلوكات البشرية بحسبانها آلية بسيطة من القيود والمصالح، وهذا يعني بالضرورة الاحتفال بالأسباب والحجج التي يتذرع بها الأفراد لتبرير أعمالهم. كما أن عالم الاجتماع وعالم الأجناس وعالم النفس يعنون كذلك بمجاري المفاوضات بين الفواعل. أما القناة الثانية التي بفضلها تمت إعادة الاكتشاف هذه فهي اللسانيات: فالوهم القائم على اعتبار اللغة نظاما لوسم الواقع قد ولى. إن قدرة اللغة على ممارسة التأثير و«الفعل على الواقع عن طريق اللغة»(2) لهي من أمهات الفرضيات النظرية للسانيات الحديثة.

هذا وتشكّل الدراسات حول المحاجّة قارّة برأسها في صلب العلوم الانسانية. إنها ميدان من الأبحاث غير المتجانسة، بيد أن عددا كبيرا من الاشكاليات تتقاطع فيما بينها، ويثري بعضها البعض الآخر. لنحاول فيما يلي اجراء مسح لهذا «الفضاء المعرفي» الذي هو في طور الاصلاح défrichement .

أثر البلاغة

يعود الفضل في استعادة البلاغة لصيتها إلى ش. برلمان Perelman أستاذ الفلسفة والقانون بجامعة بروكسل، وذلك منذ نهاية الأربعينات. وقد صاغ برلمان

مبادئ «البلاغة الجديدة» بتعميمها على أنواع الخطابات الأخرى المتنوعة. وبينما كان منكبا على البحث عن المنطق الصوري الذي ينتظم النصوص المختلفة كالأبحاث الفلسفية والمقالات السياسية وكتب الأخلاق، اكتشف من جديد الحضور الكوني للمحاجة في صلب هذه الخطابات.

وعلى نحو مشابه، بيّن بعض الدارسين أن علوم الانسان يمكن وصفها كذلك من خلال الأنماط التي تسخّرها في المحاجة. وهكذا فإن مدرسة الحوليات l'Ecole des Annales، في مجال التاريخ، قد اعتمدت كثيرا على أسلوب هجين يجمع بين الأدب والخطاب العلمي(3)، ومنذ ذلكم الوقت، ظهرت صلات العلم والبلاغة بمظهر جديد. فـ «علم الاجتماع الاجناسي» ethno sociologie للعلم قد بيّن الدور الهام الذي يضطلع له تقديم النتائج بقصد اقامة الدليل على قيمة أو عدم قيمة «ظاهرة علمية» ما. هذا وقد بيّن كل من ب. لاتور Latour وس. فولقار Woolgar في دراسة أضحت اليوم كلاسيكية عنوانها «حياة المختبر» أن تأويل نقطة ما في منحنى إحصائي قد يكون موضوع مناقشات عديدة بين الباحثين(4). فالنقطة هذه هل هي دالة pertinente وهل يمكن اعتبارها حدثا ذا بال أم هي مجرّد حثالة ليس إلا؟ إن المناقشة ليست علمية صرفة، بحيث إنها تستدعي حججا دامغة ومفاوضات. فالعلم يحاجج ويستدل وحتى الترويج vulgarisation نفسه ليس طفيليا للمارسة العلمية، بل هو شرط أساسي لتأثيرها. ولئن كانت مهنة الباحث تنطوي على القدرة على الابانة على نتائجه فإننا نجد في المقابل بأن الحوارات والأحاديث العادية كالخطاب السياسي مثلا، كثيرا ما يستخدم حججا ذات طبيعة علمية بقصد مشاطرة هذا الموقف أو ذاك(5).

وهكذا نحن نرى بأن البلاغة تبرح منزلتها بوصفّها «غاية فاتنة» أنيقة ولكن ساذجة. وعلى نحو أكثر عمقا، يروم البعض اظهار الدور الذي تضطلع به في بناء / بنينة structuration المجتمع. وهذا عينه ما يحاول القيام به الفيلسوف ج. هابرماس Habermas وك. أ. آبل Apel ، من خلال الذرائعية الصورية prag-matique formelle : فهابرماس يرى بأن أساس الترابط الاجتماعي يكمن في قدرة الناس على مناقشة الحجج التي تقف وراء أعمالهم وأفعالهم. فالحياة الاجتماعية لتعدم المعنى إن نحن عجزنا على الافصاح عن أسباب اختياراتنا(6). فهذا التوجه البحثي يسعى إلى حصر النسق الذي ينتظم الشروط المثالية لمثل هذه المناقشة. وفي صلب هذه الذرائعية نعثر على طريقة (جد معقدة) للمحاجة حيث «تبدو أخلاقيات وآداب المناقشة» حاسمة(7).

من أجل نحو للمحاجّة اليومية

وبالموازاة مع هذه الأبحاث الفلسفية المجردة جدا، هناك حقول دراسية راهنة تبذل جهودا من أجل وضع مناويل modèles لآليات المحاجّة المستخدمة في الكلام العادي.

إن دراسة المنطق الطبيعي، أي أشكال الاستدلال المعتمدة يوميا، قد دشنها مركز الأبحاث السيمولوجية لجامعة نوشاتل (سويسرا)(8). فعلى سبيل المثال، عكف اللساني ج. فينينو G. Vignaux على معاينة البنى التي ينتظم حولها الخطاب المحاجي discours argumentatif . وهكذا اهتدى إلى حصر كيفيات ثلاث تنشد تعزيز الحكم jugement. أولاها هي «المسرحة» théâtralisation التي

تسمح بعرض الواقع في شكل مسرحي. أما الكيفية الثانية، فتنبني على تعزيز الحكم الذاتي jugement subjectif بواسطة عمليات منطقية أو شبه منطقية («إذن»، «بما أن»، «لأن»). أما الكيفية الثالثة والأخيرة فتكمن في اختيار مسلك للخطاب الذي يمكّن من نقل الجمهور من فكرة إلى فكرة أخرى بغية الظفر باقناعه.

وهناك حقل آخر للبحث: اللسانيات التداولية pragmatique linguistique الذي يعود الفضل في بلورته إلى الفيلسوف الانجليزي ج. ل. اوستين Austin (1911-1960)، تعنى اللسانيات التداولية بالقيمة الانشائية للغة، أي قدرة الكلام على التأثير على العالم: كالتأثير على الغير مثلا. وتشهد على ذلك الأشكال الضمنية للمحاجة: فبدلا من تأكيد فكرة ما في صلب الحوار، يمكننا افتراضها سلفا بالتحويل على تأويل مستمعينا لها(9). فالجمل التالية، على سبيل المثال: «إنه موظف، ولكنه يشتغل» أو «ما العمل من أجل ربح الحرب الاقتصادية؟» تشترك في كونها تدافع عن أطروحات دون التصريح بها: الموظفون لا يشتغلون أو أن المنافسة الاقتصادية هي بمثابة حرب.

من جهة أخرى، تتولى اللسانيات التداولية وصف بعض الأشكال الأخرى الدقيقة للمحاجة ف. أ. برندونير A. Berrendonner بيّن أن اثبات قضية ما قد يكتسي اشكالا عديدة: الذاتية («اعتقد أن فرنسا في أزمة») والرأي («نعرف جيدا أن فرنسا في أزمة») والكونية («فرنسا في أزمة»)، وحسب أطروحة أكثر تشددا وجذرية والموسومة بـ «التداوليات المدمجة» فإن المحاجة هي بنية اللغة وليست صفة عرضية لبعض الخطابات(10).

إن تحليل الحوارات (الذي يقع في مفترق طرق كل من علم الاجتماع اللغوي وعلم الاجناس) يضع المحاجة في إطار الحالة الاجتماعية، وحينئذ تنبني المحاجة على مستويات عديدة: فهي حوارية (تحصل في الحوار) وجدالية (مبنية على تعارض عدة وجهات نظر). ومن هذه الحيثية، قلّما يتحكم المرء في المحاجة التي يصطنعها: فإيماءات مستمعيه والتوقيفات والموافقة الضمنية تحدد سيرورة كلامه.

وفضلا عن هذا، فإن مختلف الحوارات التي تحصل بين المتخاطبين تؤسس مشروعية كلامهم: تتحدد من خلالها أدوارهم، وكل واحد منهم يجلي ذاته ويقترح على الآخر تمثيله وتصوره للواقع الخ. أحيانا، يكون من الضروري بمكان التصريح بهدف أو بإطار المناقشة، وهذا ما يتجلى في عبارات من قبيل: «هل فهمت ما أعنيه؟» أو «ليس هذا ما كنت أقصده» وفي هذا الباب، يجري الحديث حول ما يعرف بـ «التواصل الواصف» métacommunication (تواصل حول التواصل). وهكذا نرى بأن اطراد مناويل المحاجة ينّم عن الصعوبة الجمة والتعقد اللذين هي عليهما المحاجة، وكذا الصعوبة في الاحاطة بها بكيفية واحدة وحيدة.

الأبحاث التطبيقية

إن الأوضاع المهنية التي نجد فيها أنفسنا مجبرين على المحاجة لا تحصى ولا تعد. من ذلك مثلا أننا نبذل جهودا جمّة لاظهار كفاءاتنا بقصد تدوينها في سيرنا الذاتية c.v واقناع الزبون أو المستخدم و«استمالة» الزميل أو رب العمل الخ. فعبر المصنفات ومختلف أشكال التكوين والاستشارة، تنتصب «ثقافة للمحاجة» تقع على مقربة كل من النظرية والتطبيق. وهكذا فإن تقنيات التفاوض (السجالي أو

التعاوني) هي بمثابة حقل خصب لهذا البحث والنشاط: انها تستلزم إدراكا دقيقا للسياقات الاجتماعية واستكناها لغايات ودوافع المتخاطبين وفهما لوجهة نظر الآخر وعناية دقيقة بأطوار التفاعل وقدرة خلاقة على تجاوز المواقف الصراعية(11).

إن هناك أوجها عديدة من البلاغة القديمة قد تم اليوم امتهانها في ميدان وسائل الاتصال والاعلام داخل المؤسسات والتجارة الخ. كما أن تقنيات دراسة الأسواق marketing والاشهار قد سعت إلى بلورة حدوس (ج حدس) البلاغة وصياغتها في شكل نظام متناسق قائم الذات: دراسة انتظارات وتوقعات الجمهور، صياغة أطوار التمثيل والاستخدام المهني لمختلف الوسائل والمواصفات codes السيميولوجية وتقنيات الاختيار للوسائل الخ.

هذا وقد ساهمت الأبحاث حول آليات أو إواليات التأثير الاشهاري في الابانة على أن الجمهور ليس أداة طيّعة manipulable يتأثر بكل ما هبّ ودب انه لمن التوهم بمكان الاعتقاد بأنه من الممكن التحكّم كلية في الآخر عبر التقنيات أو قوانين الاقناع. وهذا المجال هو أقل المجالات العلمية الانسانية عرضة للانتقاد اليوم. غير أن الباحث في هذه المجالات ملتزم أيما التزام.

على هامش البلاغة وأطرافها

وعلى هامش الأبحاث النظرية أو تقنيات المحاجة، ينفتح مجال البلاغة على مجالات أخرى:

- مجال الاتصال أولا. لقد شرع مركز الدراسات في ظواهر الاتصال

الجماهيري منذ الستينات في نقل البلاغة إلى مجال وسائل الاتصال: وإن مجلة communication لتشهد على هذه الأبحاث التي انجزها رولان بارث Barthes وأ. أيكو H. Eco وأ. موران E. Morin وك. ميتز C. Metz . أما دريجيس دوبروي R. Debray بوضعه لمبادئ علم الاتصال Médiologie، فقد سعى إلى فصل تحليل وسائل الاتصال ما وسعه ذلك عن كل مجاز لغوي، واعتماد السبل التقنية والثقافية والسياسية للمعتقد.

- طريقة تحليل الخطاب قد بيّنت «الانتظامات» التي تطرد وتسم تعابير الأفراد والتنظيمات.. فخطاب الحزب السياسي يجري في عالم لغوي خاص، له مفرداته وموضوعاته المفضلة المحدودة التي تؤطر الفكر ونمط المحاجة(12)...

- علم نفس اجتماع الاقناع psychosociologie de la persuasion الذي يدرس عينيا الأسباب التي تجعلنا نشاطر رأيا ما. غير التناول المركز ههنا على المرسل للخطاب وحده ينطوي على حدود بيّنة، لا سيما إذا تعلق الأمر بتفسير القناعات الشخصية.

- أخيرا، يفضى عرض الحجج وتقديمها إلى تمثلات الواقع. فهناك أشياء كثيرة تحصل بعيدا عن منطق الحجج: وذلك باختيار الموضوعات والفرضيات المسبقة والمفردات إن انتقال مركز اهتمام التحاليل من المرئى إلى غير المرئى لهو ذو عواقب بالغة الأهمية.

إن المحاجة تنتمي إلى مجال الممارسات العادية الواسع. وهذه الممارسات تتبدى وكأنها أمر بديهي، لكن دراستها جعلتنا نقف على مدى تعقدها ومعناها الخفي ورهاناتها.

• الهوامش:

(1) - M. Fumaroli, l'Age de l'éloquence. Rhétorique et "resliteraria" de la Renaissance au Seuil de l'époque classique, Droz, 1980.

(2) - How to do things with words, titre original de l'ouvrage de L. J. Austin, Quand dire c'est faire, Seuil, 1970.

(3) - - J. Rancière, les Noms de l'histoire. Essai de poétique du savoir, Ed. du Seuil, 1992.

(4) - B. Latour et S. Woolgar, La vie de laboratoire. La production des faits scientifiques, La Découverte, 1979.

(5) - Y. Jeanneret, Ecrire la science. Formes et enjeux de la vulgarisation, Puf, 1994.

(6) - Y. Jeanneret, Un auteur, une école: Jurgen Habermas, S. H, n. 20, 1992.

(7) - F. Armengand, La Pragmatique, Puf, Que sais-je?, 1985.

(8) - G. Vignaux, L'argumentation. Essai d'une logique discursive, Dror, 1976. J. Blaize Grize, De la logique à l'argumentation, Droz, 1987.

(9) - C. Kerbat - Orecchioni, L'implicite, A. Colin, 1986.

(10) - D. Ducrot, J.C. Anscombre, L'argumentation dans la langue, mardaga, 1983.

(11) - L. Bellenger, La négociation, Puf, Que sais-je?. A. L. Strauss, La trame de la négociation, sociologie quantitative et interactionniste, l'Harmattan, 1992.

(12) - R. Ghiglione, Je vous ai compris ou l'analyse du discours politique, A. Colin, 1989.